تأملات في سورة الرحمن

أ. د. أحمد حسن فرحات *

التعريف بالبحث :

تعتبر سورة الرحمن من السور الجميلة التي تلفت الانتباه ، وتستهوي القارىء ، لما فيها من أناقة التعبير وسحر البيان ، ومن ثم قال في شأنها النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل شيء عروس ، وعروس القرآن سورة الرحمن » ، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي تبدأ باسم « الرحمن » .

ويعتبر هذا البحث جولة في رياض هذه السورة ، حاول كشف وحدتها الموضوعية منطلقاً من مطلعها « الرحمن » ، مديراً الحديث فيها على ثمانية مقاطع بالعناوين التالية :

رحمة شاملة ، رحمة في الأرض ، رحمة في البحار والأنهار ، فناء وبقاء ، لا مهرب من سلطان الله ، حساب وعذاب ، جنتان للمقربين ، جنتان لأصحاب اليمين .

وفي البحث نظرات جديدة ، وتأملات مفيدة ، وتحقيقات ومناقشات ، كما فيه قطوف دانية ، ولطائف بينة .

---

* أستاذ التفسير وعلوم القرآن بقسم الدراسات الإسلامية في كلية الآداب بجامعة الإمارات العربية المتحدة . ولد في دمشق سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م) . ونال درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين في جامعة الأزهر بالقاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى سنة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) . وله نحو أربعين عملاً علمياً بين تأليف وتحقيق وبحث .

المقدِّمة

سورة الرحمن سورة مكية في قول الجمهور . ويرى بعض أهل العلم أنها نزلت جواباً لتجاهل الكافرين اسم « الرحمن » – جل وعلا – وكما أخبر عنهم في قوله تعالى من سورة الفرقان : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً** ﴾ (١) ، ويرى ابن عطية أن هذا القول ضعيف ، وإنما وقفت العرب على تعيين الإله الذي أمروا بالسجود له لا على نفس اللفظ (٢) .

ومما يؤكد قول ابن عطية ما جاء في قوله تعالى من سورة الرعد : ﴿ **كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** ﴾ (٣) ، فبين هنا أن كفرهم بالمسمى لا بالاسم بدلالة قوله : ﴿ **قُلْ هُوَ رَبِّي ...** ﴾ .

وأصرح من ذلك ما حكاه الله من قول العرب المشركين في سورة الأنبياء وسورة الزخرف : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** ﴾ (٤) ، ﴿ **وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴾ (٥) ، حيث بينت هاتان الآيتان معرفتهم لاسم الرحمن وجهلهم بالمسمى ، إذ أشركوا معه غيره عقيدة وعبادة .

أما العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي فقد أورد عدداً من الأبيات من الشعر الجاهلي تؤكد معرفة العرب لهذا الاسم :

« قال حاتم الطائي :

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد   وما كنت لولا ما تقولون سيدا

كلوا الآن من رزق الإله وأيسروا   فإنّ على الرحمن رزقكم غدا

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٦٠ .

(٢) المحرر الوجيز : ١ / ٩٢ .

(٣) سورة الرعد : الآية ٣٠ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ٢٦ .

(٥) سورة الزخرف : الآية ٢٠ .

ويقول الفراهي : والقرآن أنزل بلسان قوم نبينا ، وحينئذٍ كيف يستعمل اسماً لمعنى جديد ؟!.

وقال أعشى قيس :

ولأجل الرحمن بيتك في العلا بأجياد غربي الصفا والمحرم

وقال المثقب العبدي :

لحى الرحمن أقواماً أضاعوا على الوعواع أفراسي وعيسي

وقال سويد بن أبي كامل اليشكري :

كتب الرحمن والحمد له سعة الأخلاق فينا والضلع » [١] .

وبهذا يتبين التأويل الصحيح لقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً** ﴾ ، كما يتبين أن السورة جاءت لتعرفهم بالرحمن الذي لا شريك له ، ومن ثم فقد عدد عليهم فعاله العجيبة [٢] وشؤونه الغريبة التي لا يشاركه فيها أحد .

(١) مفردات القرآن للفراهي ص ٤٠ .

(٢) وهذا على ما رجحه الفراهي في معنى « الآلاء » في كتابه « مفردات القرآن » .

المقطع الأول

﴿ الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ .

معاني الكلمات :

الرحمن : اسم مخصوص بالرب تعالى ، فهو قريب من اسم الذات .. ومن ثم لم تستعمله العرب معرفاً إلا لله .

علّم القرآن : هو الكتاب المنزل على الرسول محمد ﷺ . وقيل : القرآن : بمعنى القراءة .

خلق الإنسان : أي آدم والناس .

علمه البيان : أي النطق بالكلام ، والإفهام بالقلم ، وبهما عرف أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام والمعايش .

الشمس والقمر بحسبان : أي مسخران بما قدر لهما من المنازل .

والنجم والشجر يسجدان : النجم نجوم السماء . وقيل : النجم ما لا ساق له من النبات ، والشجر ما له ساق . وكل من النجم والشجر يسجد لله تعالى .

والسماء رفعها ووضع الميزان : أي رفع السماء فوق الأرض ، وأقام بناء الكون على توازن دقيق يسمح له بالبقاء والاستمرار .

ألا تطغوا في الميزان : أي لا تتجاوزوا حقوقكم إلى حقوق غيركم إذا وزنتم لأنفسكم .

وأقيموا الوزن بالقسط : أي أقيموا لسان الميزان بالعدل .

ولا تخسروا الميزان : أي ولا تنقصوا الوزن إذا وزنتم للناس وتنقصوهم حقوقهم .

رحمة شاملة :

تبدأ السورة بذكر اسم الله « الرحمن » ، والذي يوحي بلفظه الممدود بامتداد الرحمة الإلهية وسعتها وشمولها ، فهي رحمة غامرة تلقي بظلالها وأفيائها على الكون كله ، ويستشعرها كل مخلوق في الوجود بفطرته التي فطر عليها ، ويحس بها الإنسان مع كل

حركة ومع كل سكنة ، ويلمحها في نفسه وفي كل ما حوله ، في دقة قلبه الخافق بين جنبيه ، وفي دفقة الدم التي تجري في عروقه ، وفي حفنة الهواء التي يتنسمها ، وفي عبير الوردة التي يشمها ، وفي وصوصة النجمة التي يناجيها ، وفي بسمة الوليد التي يناغيها ... وإنها لرحمة سابغة ظاهرة وباطنة .

ومن أبرز مظاهر الرحمة الإلهية كلمة الله الخالدة ، ووحيُه المنزل ، وتعليمه القرآن ، فقد علّمه ملائكته في الملأ الأعلى ﴿ **كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ** ﴾ [١] ، كما علمه جبريل عليه السلام ، وقد جاء فعل التعليم مطلقاً ليشمل كلَّ من تعلم القرآن وإن لم يكن ذلك مباشرة عن الله عز وجل ، لأن الفعل كما ينسب إلى المباشر له ، قد ينسب إلى ما هو من سببه ومُسَهِّله – كما قاله الراغب الأصفهاني في هذه الآية – : وإنما علّمنا مَن علّمه النبيُّ ﷺ وعلّم النبيَّ جبريلُ ، وجبريلُ علّمه الله عز وجل ، فصح أن ينسب إليه . ولهذا قد ينسب فعل واحد تارة إلى الله عز وجل ، وتارة إلى غيره ، نحو قوله : ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ** ﴾ [٢] ، وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ** ﴾ [٣] .

فإذن جبريل هو المعلم المباشر للنبي ﷺ كما جاء في سورة النجم : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [٤] . ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ [٥] .

وقد علمه النبي ﷺ لأمته بأمر من ربه : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [٦] . وقد

---

(١) سورة عبس : الآيات ١١ – ١٦ .

(٢) سورة السجدة : الآية ١١ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٤٢ .

(٤) سورة النجم : الآيات ٤ – ١٠ .

(٥) سورة النساء : الآية ١١٣ .

(٦) سورة الجمعة : الآية ٢ .

تحقق بذلك دعاء إبراهيم عليه السلام إذ دعا ربه : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

كما علمه النبي ﷺ لمن حضر معه من الجنّ وكما أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٢) .

فالرحمن إذن هو الذي علم القرآن ، وليس البشر كما زعم المشركون إذ قالوا : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٣) .

وكون القرآن رحمة إلهية للعباد أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) . وكذلك قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (٥) . إلى غير ذلك من الآيات .

ويبين الراغب الأصفهاني شيئاً من أسرار ترتيب النظم القرآني في مطلع سورة الرحمن فيقول : « ابتدأ بتعليم القرآن ، ثم بخلق الإنسان ، ثم بتعليم البيان ، ولم يدخل الواو فيما بينها . وكان الوجه على متعارف الناس أن يقول : خلق الإنسان ، وعلمه البيان ، وعلمه القرآن . فإن إيجاد الإنسان بحسب نظرنا مقدم على تعليمه البيان ، وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن . ولكن لما لم يُعَدَّ الإنسانُ إنساناً ما لم يتخصص بالقرآن ، ابتدأ بالقرآن ، ثم قال : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ تنبيهاً على أن البيان الحقيقي المختص بالإنسان يحصل بعد معرفة القرآن . فنبه – بهذا الترتيب المخصوص . وترك حرف العطف منه ، وجعل كل جملة بدلاً مما قبلها لا عطفاً – على أن الإنسان ما لم يكن عارفاً برسوم العبادة ومتخصصاً بها لا يكون إنساناً ، وأن كلامه ما لم يكن على مقتضى الشرع لا يكون بياناً » (٦) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٩ .

(٢) سورة الجن : الآية ١ – ٢ .

(٣) سورة النحل : الآية ١٠٣ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٥٢ .

(٥) سورة القصص : الآية ٨٦ .

(٦) تفصيل النشأتين : ١٥٠ – ١٥٣ . ثم أورد الراغب اعتراضاً ورده بقوله : « فإن قيل : فعلى ما =

وقريب من هذا الذي ذهب إليه الراغب ما ذكره الزمخشري في كشافه حيث قال : « وقدّم ذكر رحمته وإنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحي الله رتبة ، وأعلاه منزلة ، وأحسنه في أبواب الدين أثراً . . . وأخّر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه إيّاه ليعلم أنه إنما خلقه للدين ، وليحيط علماً بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله . وكأن الغرض من إنشائه كان مقدّماً عليه وسابقاً له »[١] .

ويؤكد الراغب هذا المعنى في كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة » بعبارة مقاربة حين يقول : « النطق أشرف ما خص به الإنسان ، فإنه صورته المعقولة التي باين بها سائر الحيوان ، ولهذا قال : ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ ولم يقل : « وعلمه » إذ جعل « علّمه » تفسيراً لقوله : ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ** ﴾ تنبيهاً أن خلقه إياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعاً لكانت الإنسانية مرتفعة . ولهذا قيل : ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقيل : المرء مخبوء تحت لسانه . قال الشاعر :

= ذكرت لا يصح أن يقال للكافر إنسان ، وقد سماهم الله تعالى بذلك في عامة القرآن ، قيل : إنا لم نقل إننا لا نسمي الكافر إنساناً – على تعارف الكافة – ، بل قلنا : قضية العقل والشرع أن لا يسمي به إلا مجازاً ، ما لم يوجد منه الفعل المختص به . إن سمي به على سبيل تعارف العامة فليس ذلك بمنكر . فكثير من الأسماء تستعمل على وجه ، فيبين الشرع أن ليس استعمالها على ما استعملوه ، كقولهم : « الغنى » فإنهم استعملوه في كثرة المال . فقال عليه الصلاة والسلام : « ليس الغنى بكثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » صحيح البخاري : كتاب الرقاق – باب الغنى غنى النفس ١١ / ٣٢٦ – ٣٢٧ . فبين أن الغنى ليس هو كثرة المال . وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ** ﴾ أي : كثير الأعراض ، فاستعمله على ما هو متعارف .

وجملة الأمر أن اسم الشيء إذا أطلقه الحكيم على سبيل المدح تناول الأشرف ، كقوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾ – وإن كان الذكر يقال للمحمود والمذموم . وعلى هذا يمدح كل شيء بلفظ نوعه ، فيقال : فلان هو إنسان . وهذا السيف سيف . ولهذا قيل : الإنسان المطلق هو نبي كل زمان » . وقال عليه السلام : « الناس : عالم ومتعلم وما بين ذلك هَمَج لا خير فيه » – سنن الدارمي ، المقدمة ، باب في فضل العلم والعالم ١ / ١٠٠ – وقال بعض العلماء : قول من قال : الإنسان هو الحي الناطق المائت صحيح . وليس معناه ما توهمه كثير من الناس من أنه من الحياة الحيوانية ، والموت الحيواني ، والنطق الذي هو في الإنسان بالقوة ، وإنما أريد بالحي من له الحياة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا** ﴾ وبالنطق البياني المذكور بقوله تعالى : ﴿ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ وبالمائت من جعل قوته الشهوية والغضبية مقهورتين على مقتضى الشريعة ، فيكون حينئذ ميتاً بالإرادة حياً بالطبيعة كما قيل : « مت بالإرادة تحيا بالطبيعة » . وكما قال أمير المؤمنين : « من أمات نفسه في الدنيا أحياها في الآخرة » .

(١) الكشاف : ٤ / ٤٤٣ .

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أي : إذا توهم ارتفاع النطق الذي هو باللسان والقوة الناطقة التي هي بالقلب لم يبق إلا صورة اللحم والدم . فإذا كان الإنسان هو الإنسان بذلك ، فمن كان أكثر منه حظاً كان أكثر إنسانية » [١] .

ويرى ابن القيم أن كلمات ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ دلّت على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها ، فقوله ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ** ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني . . وقوله ﴿ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني ، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه . كما أنه صار إنساناً بخلقه فهو الذي خلقه وعلّمه . ثم قال ﴿ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ : والبيان – هنا – يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بياناً :

أحدها : البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات .

الثاني : البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ، ويترجم عنها فيه لغيره .

الثالث : البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ ، فيبين للناظر معانيها ، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ . فهذا بيان للعين ، وذاك بيان للسمع ، والأول بيان للقلب ، وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله : ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ . . . » [٢] [٣] .

ومن مظاهر رحمة الله التي تفضل بها على خلقه تسخيره الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر ﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [٤] ، ويلتزم كلٌّ منهما فلكه المرسوم ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [٥] . وينزل القمر في منازل متعاقبة مقدرة يترتب

---

(١) الذريعة : ٢٦٨ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٦ .
(٣) مفتاح دار السعادة ٣٠١ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ٩٦ .
(٥) سورة يس : الآية ٤٠ .

عليها من المنافع للخلق ما لا يحصى ، وقد أشار الله تعالى إلى بعضها بقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ... ﴾ (١) ، وقد عُرفت منازل القمر منذ القدم ، واعتمدها النّاس كمواقيت في أعمالهم وزراعتهم .

أمّا الدقائق الحسابية في نظام دورانه حول نفسه وحول الأرض في نفس المدة الزمنية فلم تعرف إلا في القرن العشرين . فمن هذه الخاصية بدوران القمر نفهم معنى قوله : ﴿ **وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** ﴾ فليل القمر لا يسبق نهاره ، بل هما موجودان في نفس الوقت بالنسبة لنا ، لأن نصف القمر مظلم وغير مرئي بصورة دائمة بالنسبة للأرض ، ونصفه الآخر مضيء ومرئي بالنسبة للأرض ، والليل والنهار لا يتعاقبان على سطح القمر بالنسبة لسكان الأرض الذين لا يرون من القمر إلا نصف سطحه المضيء . أما على سطح الأرض فالليل لا يسبق النهار أيضاً إذا تصورنا الأرض بكليتها ، ففي نفس الوقت الذي يخيم الليل على جزء من الأرض يكون النهار ساطعاً في الجزء المقابل منها . أما إذا تصورنا كل جزء من الأرض على حدة فهناك تعاقب الليل والنهار .. » (٢) .

وقد تمكن علماء الفلك في هذا القرن من معرفة بعض الدقائق الحسابية المتصلة بالشمس والقمر ، والتي تلقي ضوءاً على تفصيل بعض ما أجملته الآية : ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾ « فقد قدر العلماء عمر الشمس بخمسة مليارات سنة ، وعمر القمر بأربعة مليارات سنة تقريباً . وتبعد الشمس عن الأرض بـ (١٥٠ مليون ك. م) عن الأرض ، و (٣٠) ألف سنة ضوئية عن مركز المجرة اللبنية . ويبعد القمر (٣٨٥ ألف ك.م) عن الأرض – أقل بأربعمائة مرة من بعد الشمس عن الأرض تقريباً – أما شعاع الشمس فيقدر بـ (٦٩٦٠٠٠ ك. م) ، وشعاع القمر بـ (١٧٤٠ ك. م) ، وعلى هذا فشعاع الشمس أكبر بمائة مرة من شعاع الأرض وبأربعمائة مرة من شعاع القمر . وأما وزن الشمس فيقدر بألفي مليون مليار طن ، ووزن القمر (٧٣,٤ × ٢٤ – ١٠ ك. م) . وكثافة الشمس (١,٤) غرام في السنتيمتر المربع ، أي ربع كثافة الأرض ، وكثافة القمر (٣,٣) كثافة الماء . وحرارة

---

(١) سورة يونس : الآية : ٥ .

(٢) من علم الفلك القرآني : ٩٤ .

الشمس في مركزها (١٥) مليون درجة مئوية ، وفي أطرافها (٦٠٠٠) درجة مئوية ، وحرارة القمر على سطحه بين (١٢٠) درجة فوق الصفر و(١٨٠) درجة تحت الصفر . وسرعة الشمس بالنسبة للنجوم المجاورة (١٩٫٧ ك.م) في الثانية »[١] . ولا شك بأن هذه الأرقام والنّسب تبين طرفاً من « الحسبان » الذي تتوقف عليه فوائد تسخير الشمس والقمر ، والتي أشار الله إلى بعضها بقوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ..** ﴾[٢] ، وبقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ﴾[٣] . وهذا الذي أشار إليه من الحسبان والتقدير ظاهرة عامة في كل مخلوقاته : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾[٤] ، وكما قال : ﴿ **وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ** ﴾[٥] ، وإنما خص البعض بالذكر ليدل به على الكل .

ثم امتنَّ على عباده بذكر سجود نجوم السماء ، وأشجار الأرض ، ليبين أن كل مخلوق في هذا الوجود لا بد أن يتجه نحو خالقه ، وليس ذلك خاصّاً بالنجم والشجر كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ** ﴾[٦] ، وإنما اكتفى بذكر البعض هنا ليدل به على الكل كما في الآية السابقة .

ثم أشار إلى مظهر آخر من مظاهر رحمته بخلقه حيث رفع لهم السماء فوق الأرض بغير عمد يرونها ، وأقامها على توازن يمنع سقوطها عليهم ، وجعلها آية بينة على قدرته شاهدة بوحدانيته وبديع صنعه ودقة تقديره ، وهكذا يبدو « التقدير » و « الحسبان » و « الوزن » أساس بناء الكون وسبب بقائه واستمراره « ووضع الميزان » ، والذي أقام الكون كله بالحق والعدل هو الذي أنزل على عباده الكتاب والميزان ليقوم النّاس بالقسط ، ولتستقيم

(١) من علم الفلك القرآني : ٩٢ – ٩٣ باختصار .
(٢) سورة يونس : الآية ٥ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ١٢ .
(٤) سورة القمر : الآية ٤٩ .
(٥) سورة الحجر : الآية ١٩ .
(٦) سورة الحج : الآية ١٨ .

حياة البشر كما استقام بناء الكون ، ومن ثم يدعوهم إلى عدم الطغيان في الميزان بتجاوز حقوقهم ، وإلى عدم الإخسار فيه تجاوزاً لحقوق غيرهم والالتزام فيه بالعدل والقسط ، ومن ثم يكون التوافق والانسجام بين حركة الكون وحركة الإنسان ، وتلتقي الحركتان في طريقهما إلى هدف واحد هو الرحمن .

وللعلامة عبد الحميد الفراهي الهندي نظرة عميقة في فهم نظم ﴿ **الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ يحسن أن ننقلها هنا – بشيء من التصرف – حيث يقول : « الكلام : تَدَلٍّ ، وتَرَقٍّ ، وتقرُّبٌ ، واتصالٌ ، وتَجَلٍّ ، وتعليمٌ مقالاً وحالاً . فالمتكلم ينطق بلسانه . وكذلك الكاتب بقلمه وكتابه : ﴿ **هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ** ﴾ [١] . وكذلك الآيات الدالة : ﴿ **قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [٢] . فالذي نصب الأدلة كلمنا بألسنتها وأَقْرَأَناها ، وعلمنا القراءة [٣] بما أودعنا قوة الفهم والاستدلال . ثم علمنا البيان والتعليم لأداء ما في أنفسنا . فلولا الكلام لم يكن حبل ووسيلة بين المتكلم والسامع ، أو الكاتب والقارئ ، فالكلام الحقيقي واسطة بين النفسين ، وتأدية للإرادة ، والرحمة من صنف الإرادة فتكلمنا بلسان النعم ، وكذلك الميزان ناطق مبين وحاكم بالحق راجح .

وهكذا موازين الأجزاء ومقاديرها على حسب رحمة وحكمة – آيات دالة على معانيها من الرحمة والحكمة – ثم يزيد هذا الكلام إيضاحاً فيقول : – لما كان ربنا الرحمن ، لا بد أن يسدي إلينا رحمته ، فقد جعل فينا الإدراك والإحساس لها ، وفي ذلك أمران : إظهار من الرب تعالى ، وفَهْمٌ فينا لما أظهر . فكأنه خاطبنا وأقرأنا ما خاطبنا به .

فرحمته أول كلامه والتفاته ، وإدراكنا لرحمته ونعمه أول قراءتنا – فكما خاطبنا فكذلك علمنا القراءة – .

فرحمته : كلامه وكتابه ، وشكرنا وخضوعنا لربنا : قراءة ذلك الكتاب . وهذا من لوازم الرحمة . وهذا كلامه القديم المساوق لرحمته . ثم هذا القرآن المنزل مطابق لذلك

---

(١) سورة الجاثية : الآية : ٢٩ .

(٢) سورة فصلت : الآية : ٢١ .

(٣) يلاحظ أن الفراهي هنا جعل « القرآن » بمعنى « القراءة » .

الكتاب القديم ، ألا ترى كيف بدأه باسم الرحمن الرحيم ، وبالحمد له ، فأقرأنا كتاب رحمته .

ثم لما جعل الإنسان ناطقاً ، كان لا بد أن يكون في المخاطبين من ينطق ويبين ذلك الكلام الرحماني ويتلوه على أبناء نوعه . فالبيان من لوازم خلقته وعنصر حقيقته . وأول أمره : شكره لربه ، ثم بيانه لمن حوله ؛ إذ هو كالقلب الفاهم واللسان المبين في جسم نوعه . فإن من أحسَّ فهو القلب ، ومن نطق فهو اللسان ، فالفاهم الناطق هو ترجمان كتاب الرحمة .

فالنبي أول وصفه من جهة كونه نبياً هو تلاوة آيات الرحمة على الناس ، ولذلك سمّى الرب تعالى آيات الكتاب هدىً ورحمة للمحسنين . والمحسنون هم الذين يفهمون هذه الآيات . فلهم هدى من جهة فهمهم ، ورحمة من جهة أنهم أعطوا الهدى وتحققت فيهم تلك الرحمة ، ومن جهة انتفاعهم بما يهتدون بهذا الكتاب لسعادتهم وهو التقرب إلى ربهم .

وكما أن هذا الكتاب كتاب وقرآن ونطق وبيان ، فكذلك آيات الفطرة ، وخلقة السموات والأرض وجريان الشمس والقمر ، واختلاف الليل والنهار ، والرياح والسحاب ، كتاب منشور متضمن لآيات رحمته وحكمته . ثم كونها مجراة ومسخرة طائعة ، وسجود النجم والشجر تسبيحات وصلاة منها ، وإسماع لنا لآيات الرحمة والحكمة ، وتفرده بالربوبية والملك . فهذا نطق آخر كالصدى يكرر علينا كلام الرحمن تكرار دلالة الانفعال على صفة الفاعل ، كما قال : ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ** ﴾ (١)(٢) .

المقطع الثاني

﴿ **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ .

---

(١) سورة ص : الآية ١٨ .

(٢) دلائل النظام : ١١٢ – ١١٤ .

معاني الكلمات :

والأرض وضعها للأنام : أي جعلها ممهدة لمخلوقاته وافية بحاجاتهم .

فيها فاكهة ، الفاكهة : هي الثمار كلها ، وعطف عليها النخل من باب عطف الخاص على العام لمزيد العناية والاهتمام .

والنخل ذات الأكمام ، الأكمام : جمع « كِمّ » : وهو ما يغطي الثمرة ، أو جمع « كُمّ » وهو ما تلف به النخلة من ليف .

والحب ذو العصف : حب البر والشعير ذو الورق والتبن ، ونحوهما من المطعومات .

والريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات . وقيل : هو الرزق المطعوم .

فبأي آلاء ربكما تكذبان ، الآلاء : الفعال العجيبة (١) . والمعنى : فبأي فعال ربكما العجيبة تكذبان يا معشر الجن والإنس .

خلق الإنسان من صلصال كالفخار : أي خلق الله آدم من الطين اليابس يسمع له صوت كالفخار إذا يبس .

وخلق الجان من مارج من نار : أي من لهيب مختلط متموج .

رب المشرقين ورب المغربين : يريد مشرق الشمس والقمر ، ومغرب الشمس والقمر . وقيل : مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما .

---

(١) قال العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي في تحقيقه لمعنى هذه الكلمة : « أجمعوا على أن معناه النعم ، ولكن القرآن وأشعار العرب يأباه ، والظاهر أن معناه : الفعال العجيبة ... ولما كان غالب فعاله تعالى الرحمة ظنوا أن « الآلاء » هي النعم ... أما القرآن فقوله تعالى ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ** ﴾ بعد ذكر هلاك الأقوام ، وهكذا في سورة الرحمن . وأما كلام العرب ، فقال طرفة :

كامل يحمل آلاء الفتى   نبه سيد سادات خضم

وقال المهلهل :

الحزم والعزم كانا من طبائعه   ما كلُّ آلائه يا قوم أحصيها » .

وانظر بقية شواهد الشعر التي ذكرها الفراهي في كتابه « مفردات القرآن » ص ١١ – ١٢ .

رحمة للأنام :

ومن مظاهر رحمته تعالى خلقه للأرض وجعلها صالحة للأحياء ، وافية بحاجاتهم ، قائمة بأرزاقهم ، كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى في سورة فصلت : ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ (١) ، وكما قال : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ...** ﴾ (٢) ، وقال أيضاً : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ...** ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا** ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ **وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ** ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾ (٦) ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي توضح معنى وضع الأرض للأنام .

ثم أشار إلى بعض ما وضعه للأنام في الأرض فذكر الفاكهة والنخل والحب والريحان ، ودلَّ ببعض المذكور على الكثير مما لم يذكره من أصناف الثمار وأنواع النبات ، ووصف النخل بأنها ذات الأكمام ، كما وصف الحب بأنه ذو العصف ، وفي ذلك إشارة إلى الناحية الجمالية فيهما والتي أوضحتها آيات كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ** ﴾ (٧) ، وقوله أيضاً : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا** ﴾ (٨) ، كما أن في ذكر الأكمام والعصف إشارة إلى أنها ستكون طعاماً للحيوان الذي لم يذكر هنا صريحاً ، وكأنه اكتفى عن ذكره بالإشارة إلى طعامه ، وذلك كما قال تعالى مصرحاً به في آيات أخرى : ﴿ **وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ**

---

(١) سورة فصلت : الآية ١٠ .
(٢) سورة الرعد : الآية ٣ .
(٣) سورة الملك : الآية ١٥ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٢٢ .
(٥) سورة الذاريات : الآية ٤٨ .
(٦) سورة البقرة : الآية ٢٩ .
(٧) سورة ق : الآية ١٠ .
(٨) سورة الأنعام : الآية ٩٩ .

دحاها ﴿٣٠﴾ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴿٣١﴾ والجبال أرساها ﴿٣٢﴾ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ (١) . وقال : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴿٥٣﴾ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴿١٠﴾ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ (٤) .

وفي ذكر « الريحان » إشارة إلى المشموم من النبات ، وبذلك يكون قد جمع إلى التفكه بالثمار حسن النظر في الأكمام ، كما جمع في ذكر الحب ذي العصف بين طعام الإنسان وغذاء الحيوان . وهكذا يلبي حاجة الحواس من ذوق ونظر وشم .

ثم يتوجه بالسؤال إلى الإنس والجن ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، ولا بد أن يكون الجواب كما أجابت الجن حين قالوا : « ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب » لأن مثل هذا الموقف بعد هذه الجولة في آلاء الله لا يحتمل إلا جواباً واحداً .

وبعد تلك الجولة التي امتن فيها الله على عباده بما وضع لهم في الأرض مما يقوم بمصالحهم من النبات والحيوان ، يذكرهم بآلائه عليهم إذ خلقهم من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، وذلك ليروا مقدار النقلة التي انتقلوا إليها بفضل الله ورحمته ، فقد أشار الله في آيات كثيرة إلى مراحل خلق الإنسان ، كما أشار إلى مرحلة الطين بقوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ (٧) ، وقال : ﴿ إني خالق بشراً من طين ﴾ (٨) ، ثم

---

(١) سورة النازعات : الآيات ٣٠ – ٣٣ .

(٢) سورة السجدة : الآية ٢٧ .

(٣) سورة طه : الآيتان ٥٣ – ٥٤ .

(٤) سورة النحل : الآيتان ١٠ – ١١ .

(٥) سورة المؤمنون : الآية ١٢ .

(٦) سورة السجدة : الآية ٧ .

(٧) سورة الصافات : الآية ١١ .

(٨) سورة ص : الآية ٧١ .

خمّر هذا الطين فصار حمأً مسنوناً ، أي : طيناً أسود متغير الريح كما قال : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (١) ، وقال : ﴿ **إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (٢) ، ثم يبّس هذا الطين فصار صلصالاً . والصلصال : الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة ، أي صوت إذا قرع بشيء ، فإذا طبخ صار فخاراً .

والنقلة الهائلة التي تشير إليها الآيات هي تلك المفارقة العجيبة بين ما كان عليه الإنسان إذ كان صلصالاً كالفخار ، وبين ما صار إليه بفعل الله وقدرته ، إذ تحول إلى إنسان سوي يتكلم بعد أن علمه البيان ، فأين صوت الصلصال من صوت الإنسان ، وأين مرحلة الصلصال من مرحلة البيان .

ومثل هذا ما ورد في مرحلة النطفة إذ قال : ﴿ **خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ (٣) ، : أي بيّن الخصومة ظاهرها ، وإنما صار كذلك لأن الله علمه البيان وأقدره عليه بما جعل له من اللسان والشفتين ، كما قال : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ** ﴾ (٤) .

ومثل ما قيل في تلك النقلة الهائلة التي انتقل فيها الإنسان من مرحلة الصلصال إلى مرحلة البيان ، يقال أيضاً في الجان الذي خلق من مارج من نار ، فإنه انتقل من مرحلة الظهور والبيان التي هي مرحلة النّار – والنار ترى ويُرى بها – إلى مرحلة الاختفاء والاستتار وهو مدلول كلمة « الجان » ، فإنها مشتقة من « جنّ » بمعنى ستر ، كما قال : ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ** ﴾ (٥) ، وإنما سمي الجن جناً لأنهم مغيبون عن الأنظار .

ومثل هذا التفاوت بين ما كان عليه الإنس والجن وبين ما صاروا إليه يكون التفاوت بين المشرقين وبين المغربين ، فأين مرحلة شروق الشمس والقمر وما فيها من الظهور

(١) سورة الحجر : الآية ٢٦ .
(٢) السورة السابقة : الآية ٢٨ .
(٣) سورة النحل : الآية ٤ .
(٤) سورة البلد : الآيتان ٨ – ٩ .
(٥) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .

والبيان من مرحلة غروبهما وما فيها من العتمة والظلام ؟ إنها القدرة الخارقة تتبدى في تحويل الصلصال إلى بيان وفي تحويل النار إلى جان ، كما تتبدى في تحويل الغروب إلى شروق والشروق إلى غروب . ولا غرابة في ذلك فرب الإنسان والجان هو رب المشرقين ورب المغربين ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ .

المقطع الثالث

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

معاني الكلمات :

مرج البحرين يلتقيان : أي أرسلهما وأفاض أحدهما بالآخر أو خلطهما . وأحدهما : هو الأنهار العذبة ، والآخر : هو البحار المالحة .

بينهما برزخ لا يبغيان : بينهما حاجز وبعد ، لا يفسد أحدهما صاحبه ، فيبغي بذلك عليه ، ولا يتجاوزان حد الله الذي حدّه لهما .

يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان : أي من مجموعهما ، فإذا وجد ذلك لأحدهما كفى . واللؤلؤ : كبار الجوهر . والمرجان : صغاره . وقيل : العكس . وقيل : المرجان : أحجار حُمْر .

وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ، الجواري : السفن تجري في البحر . والمنشآت : المرفوعات الشُّرُع . وقرىء « المُنْشِئَات » : أي : الرافعات الشُّرُع ، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن . والأعلام : جمع « عَلَم » : وهو الجبل الطويل .

رحمة في البحار والأنهار :

في هذه الآيات يمتن الله على عباده بما جعل لهم من البحرين وهما البحر العذب والبحر المالح – كما ذهب إلى ذلك عامة أهل التفسير قديماً – ، كما أن هناك فهماً حديثاً في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة سنذكره بعد ذلك .

والبحر العذب يتمثل بالآبار والينابيع والأنهار ، والبحر المالح المتمثل بالمحيطات وما شابهها . وقد أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾ (١) ، وبقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾ (٢) .

وقد أخبرنا في هذه الآيات أنه مرج البحرين يلتقيان ، على معنى أرسلهما وخلاهما بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر ، وإن كانا يلتقيان في النهاية حيث تصب الأنهار العذبة في المياه المالحة ، وعدم اختلاطهما في المجرى يعود إلى ما جعل بينهما من الفاصل الحاجز بين اليابسة التي هي مصدر الماء العذب وبين البحر الذي هو مجمع الماء المالح .

وقد أشار إلى هذا الحاجز بقوله في سورة الفرقان : ﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ (٣) ، فهذا الفاصل هو البرزخ الذي يحجر بينهما حجراً شديداً فلا يمكن أحدهما من البغي على الآخر والاختلاط به في مجراه . كما أشار إليه بقوله : ﴿ **أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٤) .

ويمكن أن يكون قوله : ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** ﴾ من « مَرَج » بمعنى « خلط » لا بمعنى « أرسل » ، ويكون معنى الآية : خلط الماء المالح والماء العذب في مجرى واحد دون أن يتحد أحدهما بالاخر ، بل يكون بينهما حاجز من اختلاف كثافة الماءين ، وهذا محقق الوجود في بعض البلاد والأماكن كما نقل الثقات عن نهر السنغال عند التقائه بالمحيط الأطلسي ، وأن بإمكان الإنسان هناك أن يغرف بإحدى يديه ماءً عذباً فراتاً ، وبالأخرى ملحاً أجاجاً ، وكلاهما في مجرى واحد لا يتحد أحدهما بالآخر . فبأي آلاء ربكما تكذبان يا معشر الجن والإنس ، وأنتم ترون هذه القدرة الفائقة والنعمة الكبرى في شأن هذين البحرين إذ يلتقيان ولا يبغيان .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٥٣ .

(٢) سورة فاطر : الآية ١٢ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٥٣ .

(٤) سورة النمل : الآية ٦١ .

ومن عجيب أمر هذين البحرين أنهما على الرغم من اختلافهما عذوبة وملوحة فإنهما يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، وكما أشار إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا** ﴾ (١) ، نعم إنهما لا يستويان عذوبة وملوحة ، ولكنهما يستويان بما يعطيان من اللحم الطري طعاماً ، وبما يمنحان من الدر زينة وحلية ، وقد كان يظن قديماً أن اللؤلؤ لا يستخرج إلا من المياه المالحة مما حمل بعض المفسرين على تأويل الآية على أن المراد بالبحرين أحدهما وإن كان التعبير نسبه إليهما ، ولكن جاءت الاكتشافات لتؤكد الحقيقة القرآنية كما جاء في دائرة معارف الشعب المصرية أثناء حديثها عن اللؤلؤ . تقول الموسوعة : « وأنواع المحار جميعها قد تنتج اللؤلؤ ، ولكنه يوجد غالباً في أنواع معينة منها ، فلقد عثر مثلاً على لآلىء رائعة الجمال في محار المياه العذبة الذي يعيش في بريطانيا ، وبخاصة أنهار ويلز واسكتلندا . . . وأشهر لؤلؤة منها عثر عليها في نهر « كونواي » في القرن السابع عشر ، وأهداها أحد نبلاء الإنكليز إلى الملكة « كاترين » زوجة شارل الثاني . وما زالت محفوظة ضمن مجوهرات التاج البريطاني في برج لندن . ولا يزال الأهالي يقتنون المحار عند مصب هذا النهر » (٢) .

ويرى الشيخ عبد المجيد الزنداني أن المراد بالبحرين – في آية الرحمن – بحران ملحان – بدليل أن الآية أطلقت « البحرين » ولم تقيدهما – والبحر إذا أطلق ولم يقيد انصرف إلى الملح ، وإذا قُيِّد انصرف إلى ما قيد به . كما ذكرت الآية التالية بأنه يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، والمرجان لا يكون إلا في البحار الملحة .

والآية تذكر اللقاء بين بحرين ملحين يختلف كل منهما عن الآخر ، إذ لو كان البحران لا يختلف أحدهما عن الآخر لكانا بحراً واحداً ، ولكن التفريق بينهما في اللفظ القرآني دال على اختلاف بينهما مع كونهما ملحين ، و ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** ﴾ أي أن البحرين

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٢ .

(٢) العدد (٧٣) ، الصفحة (٥٣٧) .

مختلطان وهما في حالة ذهاب وإياب واختلاط واضطراب . وهذا ما كشفه العلم من مد وجزر في البحار يجعلها مضطربة بأكملها في مناطق الالتقاء ، لكن البحار المختلطة تختلط مع بعضها ببطء شديد .

ومن يسمع هذه الآية فقط ، يتصورأن امتزاجاً واختلاطاً كبيراً يحدث بين هذه البحار يفقدها خصائصها المميزة لها ، ولكن العليم الخبير يقرر في الآية بعدها ﴿ **بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ** ﴾ أي ومع حالة الاختلاط والاضطراب هذه التي توجد في البحار فإن حاجزاً يحجز بينهما يمنع كلاً منهما أن يطغى ويتجاوز حده ، وهذا ما شاهده الإنسان بعد ما تقدم في علومه وأجهزته ، فقدوجد ماءً ثالثاً يختلف في خصائصه عن خصائص كل من البحرين المتمايزين في خصائصهما من حيث الملوحة والحرارة والكثافة ، والأحياء المائية ، وقابلية ذوبان الأكسجين . ووجد أن هذا الحاجز المائي متحرك بين البحرين على اختلاف فصول السنة ، وهذا المعنى يندرج أيضاً تحت قوله تعالى : ﴿ **مَرَجَ** ﴾ الذي يعني أيضاً الذهاب والإياب والاختلاط والاضطراب ، ومع وجود البرزخ فإن ماء البحرين المتجاورين يختلط ببطء شديد ، ولكن دون أن يبغي أحد البحرين على الآخر ، لأن البرزخ منطقة تقلب فيه المياه العابرة من بحر إلى آخر لتكتسب المياه المتنقلة من بحر إلى آخر صفات البحر الذي ستدخل إليه ، وتفقد صفات البحر الذي جاءت منه ، وبهذا يمتنع طغيان بحر بخصائصه على البحر الآخر مع أنهما يختلطان أثناء اللقاء ... » [١] .

أما آية الفرقان : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا** ﴾ [٢] ، فقد أضافت إلى ذكر البرزخ « الحجر المحجور » ، وقد أدّت الاكتشافات العلمية والدراسات لمناطق المصب – التقاء الأنهار العذبة بالبحار الملحة – إلى أن منطقة المصب مزيج من الملوحة والعذوبة ، وهي منطقة فاصلة بين النهر والبحر متحركة بينهما بحسب مد البحر وجزره ، وفيضان النهر وجفافه ، وتزداد الملوحة فيها كلما قربت من

(١) منطقة المصب والحواجز بين البحار في القرآن : ٣٨ – ٤٠ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٥٣ .

البحر ، وتزداد درجة العذوبة كلما قربت من النهر .

كذلك يوجد برزخ مائي يحيط بمنطقة المصب ويحافظ على هذه المنطقة بخصائصها المميزة لها .. على الرغم من حركة المد والجزر وحالات الفيضان والانحسار .. والامتزاج بين الماءين يتم بصورة بطيئة جداً .. وبناءً على ما تقدم يكون هناك كتل مائية ثلاث : ماء النهر ، ماء البحر ، ماء المصب . وهي تختلف في الملوحة والعذوبة ، والكائنات الحية التي تعيش فيها ... فمنطقة المصب حجر على معظم الكائنات الحية التي تعيش فيها ، لأن هذه الكائنات لا تستطيع أن تعيش إلا في نفس الوسط المائي المتناسب في ملوحته وعذوبته مع درجة الضغط الأسموزي [١] في تلك الكائنات ، وتموت إذا خرجت من المنطقة المناسبة لها ، وهي منطقة المصب ، وهي في نفس الوقت محجورة على معظم الكائنات الحية التي تعيش في البحر والنهر ، لأن هذه الكائنات تموت إذا دخلتها بسبب اختلاف الضغط الأسموزي » [٢] .

وهكذا يكشف العلم بعض أسرار الإعجاز مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [٣] .

وبهذا يتأكد صدق ما أخبر به القرآن ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ ؟ والجواب : ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب .

واستكمالاً للحديث عن البحرين وشؤونهما العجيبة وما يخرج منهما كان لا بد من الإشارة إلى السفن الجارية في البحر ، وما لذلك من دلالة على قدرة الله ورحمته ، فقال تعالى : ﴿ **وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ .

يخبر تعالى في هذه الآية أن جريان الفلك والسفن في البحر مرفوعات الشرع كالجبال له وحده ، أي من شأنه وبأمره وبنعمته كما قال في آيات أخر : ﴿ **وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ**

---

(١) هي ظاهرة تتعلق بمقدار نفاذ الأملاح في الأغشية .

(٢) منطقة المصب والحواجز بين البحار في القرآن : ٢٣ – ٢٧ باختصار وتصرف .

(٣) سورة فصلت : الآية ٥٣ .

بأمره ﴾ (١) ، وكما قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ (٢) ، وكما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٣) .

ولا شك بأن جريان السفن في البحر حاملة فوقها البضائع والأناسي وغيرها من الأثقال رافعة قلاعها وشُرُعها كالجبال دليل على قدرة الله ورحمته بعباده وتكريمه لهم كما قال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (٤) ، وذلك أن الله سبحانه جعل في الماء من الخصائص ما يمكنه من حمل السفن ، وجعل في السفن من الخصائص ما يمكنها من الجريان فوق الماء ، وجعل في الريح من الخصائص ما يمكنها من دفع السفن عن طريق القلاع والشُّرُع . ولو أراد إسكان الريح وإهلاك السفن لكان له ذلك كما قال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٥) . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . والجواب : ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب .

المقطع الرابع

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

معاني الكلمات :

كل من عليها فان : كل من على الأرض هالك منقطع عن الحياة .

ويبقى وجه ربك : قيل : الوجه هنا : صفة من صفات الله . وقيل : المراد به الذات .

---

(١) سورة الحج : الآية ٦٥ .

(٢) سورة الجاثية : الآية ١٢ .

(٣) سورة لقمان : الآية ٣١ .

(٤) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .

(٥) سورة الشورى : الآيتان ٣٣ – ٣٤ .

وقيل غير ذلك .

ذو الجلال : ذو العظمة والكبرياء .

والإكرام : ذو الفضل والإنعام .

يسأله من في السموات والأرض ، أي : يفزع إليه بحاجاتهم الملائكة والإنس والجن وغيرهم .

كل يوم هو في شأن ، أي من شؤون خلقه فيفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويخفض آخرين ، وغير ذلك من الشؤون .

سنفرغ لكم أيها الثقلان : هذا وعيد وتهديد للثقلين من الإنس والجن ، أي : سنقصد لحسابكم ومجازاتكم ، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن .

الفاني .. والباقي :

عرفنا من خلال الآيات السابقة آلاء الرحمن وشؤونه العجيبة في خلقه للإنسان وتعليمه القرآن والبيان ، وفي خلقه للسموات والأرض ، والشمس والقمر ، والنجم والشجر ، وإقامة بناء الخَلْقِ والحياة على أساس العدل والميزان ، وجعل الأرض صالحة لحياة البشر ، بما جعل فيها من الأرزاق والمعايش وأسباب الحياة في البر والبحر .

وفي هذه الآيات يبين الله لنا أن بقاء الأحياء على هذه الأرض ليس إلى ما لا نهاية ، وأنه لا بد أن تنقطع الحياة البشرية عن هذه الأرض في يوم من الأيام ، ومن ثمَّ فلن يبقى خالداً إلا وجه ربنا ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإفضال ، وكذلك لن يبقى من أفعال العباد إلا ما كان مقصوداً به وجه الله تعالى ذو الجلال والإكرام ، وذلك ما تشير إليه آيات أخرى في القرآن كقوله تعالى : ﴿ **وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (١) ، أي كل شيء هالك إلا ما قصد به وجه الله ، ومن ثم فهو الذي ينبغي التوجه إليه بالدعاء دون الشركاء ، أما دعاء الشركاء فلن يجدي شيئاً لأنهم هالكون ، والهالك لا يستطيع أن يدفع الهلاك عن

---

(١) سورة القصص : الآيتان ٨٧ – ٨٨ .

نفسه فكيف يمكنه إفادة غيره .

وكذلك كل مظاهر الحياة الدنيا وزينتها هي في طريقها إلى الفناء والزوال كما قال تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ (١) فإذن كل ما في الحياة الدنيا من زينة أو متاع سيكون هشيماً تذروه الرياح ، ولن يبقى إلا الأعمال الصالحة التي قصد بها وجه الله ومرضاته ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ ، وقد أكد الله هذا المعنى بقوله في آية أخرى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ (٢) ، وإذ ثبت أن كل شيء في هذا الوجود إلى زوال وفناء ، فجدير بمن في الأرض من إنس وجان أن يولوا وجوههم تجاه الحي الباقي ، وأن ينفضوا أيديهم من الموقوت الفاني ، وألا يعولوا في حياتهم إلا على خالق الحياة والأحياء ، من بيده مقاليد الأرض والسماء ، فهو القادر على نفعهم وضَرِّهم ، وهو الذي بيده إجابة دعائهم وسؤلهم . فإن فعلوا ذلك كانوا من المصدقين بآلائه الشاكرين لنعمائه ، وإن لم يفعلوا صح أن يقال لهم : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ ؟

وتوجه الإنسان إلى الله وحده دون غيره ينسجم مع توجه الخلق جميعاً ممن في الأرض والسماء ، فكلهم يستمدون وجودهم من وجوده ، وتقوم حياتهم وتستمر على عطائه وجوده ، فهم دائماً بحالة دعاء وسؤال إما بلسان الحال أو بلسان المقال ، ولو تخلّى الله عنهم طرفة عين لصاروا إلى فناء وزوال . ومن ثم فإن من شأن الله أن يستجيب دعاءهم ، وأن يلبي احتياجاتهم وأن يعطيهم أسباب الحياة والنماء على مر الأيام والدهور . وقد وردت عبارات عن السلف في قوله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ لا بأس أن نجمل ما جاء فيها :

---

(١) سورة الكهف : الآيتان ٤٥ – ٤٦ .

(٢) السورة السابقة : الآيتان ٧ – ٨ .

قال ابن كثير : « وهذا إخبار عن غناه عما سواه ، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات ، وأنهم يسألون بلسان حالهم وقالهم . وأنه كل يوم هو في شأن »[١] . ومن شأنه أن يجيب داعياً ، أو يعطي سائلاً ، أو يفك عانياً ، أو يشفي سقيماً ، أو يجيب مضطراً ، أو يغفر ذنباً ، أو يحيي حياً ، ويميت ميتاً ، ويربي صغيراً ، ويفك أسيراً ، ويعتق رقاباً ، ويعطي رغاباً ، ويقحم عقاباً .

وفي الحديث الشريف : « فقلنا يا رسول الله : وما ذلك الشأن ؟ قال : أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين »[٢] . ولا شك بأن هذا من آلائه وشؤونه العجيبة التي لا ينبغي لأحد أن يكذب بها ولو كذب بها أحد لكان موقفه نشازاً ، ومن ثم يتوجه بالخطاب إلى الجن والإنس : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ ؟! ، وإذ كانت هذه الآية ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ قد توحي بأن الله مشغول بخلقه وتدبير أمورهم كما سبق شرحه وتبيينه ، فإن الآية التي بعدها تشير إلى أن الله تعالى سيفرغ لمحاسبة خلقه من الجن والإنس يوم القيامة ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ** ﴾ ، وهذا إذا كان يصح في مقاييس البشر وما يجري عليهم ، فإنه لا يصح بحق الله ، ولا يجوز قياس شأنه على شأنهم ، فالله تعالى لا يشغله شأن عن شأن ، ومن ثم ذهب العلماء إلى أن المراد بالآية التهديد والوعيد . قال البخاري في معنى قوله تعالى ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ** ﴾ : أي سنحاسبكم ، لا يشغله شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال : لأتفرغن لك وما به شغل ، يقول : « لآخذنك على غرتك »[٣] .

ويقول صاحب الظلال في معنى قوله ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ** ﴾ : « يا للهول المرعب المزلزل الذي لا يثبت له إنس ولا جان ، ولا تقف له الجبال الرواسي ولا النجوم والأفلاك ! الله – جل جلاله – الله القوي القادر ، القهار الجبار ، الكبير المتعال ، الله سبحانه

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٧٠ – طبعة دار الشعب .

(٢) سنن ابن ماجه : المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ١/ ٧٣ .

(٣) صحيح البخاري : كتاب التفسير ، تفسير سورة الرحمن ٨/ ٨٠٣ .

يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، في وعيد وانتقام ! . إنه أمر . إنه هول . إنه فوق كل تصور واحتمال ! . والله سبحانه ليس مشغولاً فيفرغ ، وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشري ، وإيقاع الوعيد في صورة مذهلة مزلزلة ، تسحق الكيان بمجرد تصورها سحقاً . فهذا الوجود كله نشأ بكلمة واحدة « كن فيكون » . وتدميره أو سحقه لا يحتاج إلا واحدة كلمح بالبصر .. فكيف يكون حال الثقلين . والذي يفرغ لهما وحدهما ليتولاهما بالانتقام ؟! . وفي ظل هذا الهول الرعيب يسأل الثقلين المسكينين : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ ؟! »[1] .

المقطع الخامس

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

معاني الكلمات :

إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا : أي إن استطعتم أن تخرجوا من أطراف السموات والأرض فتفلتوا من حساب ربكم فاخرجوا .

لا تنفذون إلا بسلطان : أي لا تقدرون على ذلك إلا بقوة ، وأنتم لا تملكون هذه القوة .

يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس : الشواظ : اللهب . والنحاس : الدخان . والمعنى : يرسل عليكما لهب من نار ودخان ، فيكون هذا مرة ، وهذا مرة . وقيل : النحاس : الصفر حيث يذاب ويصب فوق رؤوسهم . ومن قرأ بخفض « ونحاسٍ » يكون المعنى : يرسل عليكما لهب يتشعب من نار ومن دخان .

فلا تنتصران : أي لا ينصر بعضكم بعضاً أيها الإنس والجن .

(١) في ظلال القرآن : ٣٤٥٥ – ٣٤٥٦ .

لا نفاذ من أقطار السموات والأرض :

بعد ذلك الوعيد الشديد للإنس والجن والذي تمثل في قوله تعالى : ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ والذي يثير الخوف والذعر في النفوس ، فتحاول البحث عن مهرب وملجأ ، يتوجه بالخطاب إليهما مشيراً إلى ما يمكن أن يفكرا فيه من طريقة للهرب من أقطار السموات والأرض قائلاً لهم : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ ، وليس لهما السلطان الذي يمكنهما من النفاذ من أقطار السموات والأرض ، والخروج من ملك الله وحكمه وقضائه ، ولو أنهم تمادوا وحاولوا النفاذ مع أنهم لا يملكون السلطان ، فسيبوءون ولا شك بالخيبة والخسران ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ** ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في وقت حدوث ذلك ومعناه على ثلاثة أقوال – غير القول الذي اخترناه أولاً – ذكرها الطبري :

القول الأول : « قال بعضهم : معنى ذلك إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا ذلك ، فإنكم لا تجوزونه إلا بسلطان من ربكم ، قالوا : وإنما هذا قول يقال لهم يوم القيامة . قالوا ومعنى الكلام : سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فيقال لهم : يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا » ، قال الضحاك بن مزاحم : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، ونزل من فيها من الملائكة فأحاطوا بالأرض ومن عليها ، ثم بالثانية ، ثم بالثالثة ، ثم بالرابعة ، ثم بالخامسة ، ثم بالسادسة ، ثم بالسابعة ، فصفوا صفاً دون صف ، ثم ينزل المَلَكُ الأعلى على مجنبته اليسرى جهنم ، فإذا رآها أهل الأرض ندّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قول الله : ﴿ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ** ﴾ (١) ، وذلك

---

(١) سورة غافر : الآيتان ٣٢ – ٣٣ .

قوله : ﴿ **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴿٢٢﴾ **وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ** ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ ، وذلك قوله : ﴿ **وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴿١٦﴾ **وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا** ﴾ (٢) » (٣) .

ويلاحظ بأن هذا القول مبناه أن يكون ذلك بعد تشقق السماء الدنيا كما صرح به الضحاك في أول كلامه ، وكما استشهد بآخر كلامه بقوله : ﴿ **وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾ . بينما سياق الكلام في سورة الرحمن يفيد أن انشقاق السماء يكون بعد ذلك كما قال تعالى : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴿٣٣﴾ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴿٣٤﴾ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ** ﴿٣٥﴾ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ . ثم قال بعد ذلك : ﴿ **فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** ﴿٣٧﴾ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴿٣٨﴾ **فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ** .. ﴾ فإذن وقوع انشقاق السماء بعد الأمر السابق يجعل قول الضحاك غير مسلم ومحل نظر على أقل تقدير .

القول الثاني الذي ذكره الطبري مما قاله الضحاك أيضاً : « وقال آخرون : بل معنى ذلك أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا هاربين من الموت ، فإنّ الموت مدرككم ولا ينفعكم هربكم منه . قال الضحاك : يقول : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ** ... ﴾ – الآية – يعني بذلك أنه لا يجيرهم أحد من الموت وأنهم ميتون لا يستطيعون فراراً منه ولا محيصاً ، ولو نفذوا أقطار السموات والأرض كانوا في سلطان الله ، ولأخذهم الله بالموت » (٤) .

والقول الثالث الذي ذكره الطبري : « وقال آخرون : إن استطعتم أن تعلموا ما في

---

(١) سورة الفجر : الآيتان ٢٢ – ٢٣ .

(٢) سورة الحاقة : الآيتان ١٦ – ١٧ .

(٣) (٤) تفسير الطبري : ٢٧/١٣٧ بتصرف .

السموات والأرض فاعلموا . ونقل قولاً منسوباً لابن عباس : يقول : إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، يعني البينة من الله جل ثناؤه » [١] .

ومما يضعف هذا القول ما جاء بعده : ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ** ﴾ فلا يتناسب مع السلطان الذي هو البينة من الله جل ثناؤه .

وقد حاول بعض المفتونين بالنظريات العلمية الحديثة ، أن يعتبروا الآية إشارة إلى ما توصل إليه الإنسان في العصر الحديث من الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية التي تخترق الفضاء ، مع أن الآية ليست في هذا المجال أصلاً . وسياقها وسباقها لا يدل على ذلك ولا ينسجم معه .

كما حاول بعض علماء الشريعة من باب رد الفعل المعاكس إنكار ما توصل إليه العلم من هذه المخترعات الحديثة ، اعتماداً منهم على أن هذا لا يتفق مع مجموع النصوص الواردة في حفظ السماء .

والحقيقة أن كلا الفريقين أقحم نفسه في أمر كان في غنىً عنه ، وقد ينتج عن كلا الرأيين ما لا تحمد عقباه . فكما أن الذين استدلوا بالآية على كونها إشارة إلى غزو الإنسان للفضاء ووصوله إلى الكواكب قد تجاهلوا ما جاء بعدها من قوله : ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ** ﴾ . وهو ما يؤكد خطأ فهمهم . كذلك الذين أنكروا الوصول إلى الكواكب عن طريق غزو الفضاء مستدلين بهذه الآية وأمثالها قد أخطئوا المراد ، لأن « النفاذ » في اللغة العربية « جواز الشيء والخلوص منه » . و« النفاذ » : مخالطة السهم جوف « الرّميَّة » وخروج طرفه من الشق الآخر وسائرهُ فيه . يقال : نفذ السهم من الرَّميَّة ، ينفُذ ، نفاذاً ، كـ« النفذ » فالذين أنكروا الوصول إلى الكواكب فسروا النفذ بمعنى الوصول إلى السماء ، وهذا المعنى قد يستعمل لو كان التعبير بقوله : « أن تنفذوا إلى أقطار السموات والأرض » ، ولكن التعبير في الآية : ﴿ **أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾

---

(١) تفسير الطبري ٢٧ / ١٣٧ بتصرف .

وهو يوحي بالخروج منها ، أي من الشق الآخر كما هو معنى « النفاذ » في العربية ، وبخاصة إذا كان بلفظ « نفذ منه » فلا بد من خروجه من الشق الآخر .

ولا شك بأن هذا هو غير الممكن ، وهو الذي قال الله فيه : ﴿ **يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ . والعلم عند الله تعالى .

المقطع السادس

﴿ **فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ .

معاني الكلمات :

فإذا انشقت السماء : أي تصدعت في يوم القيامة .

فكانت وردة : أي حمراء كالوردة ، أو كلون الفرس الورد ، وهو الأبيض الذي يضرب إلى الحمرة في الشتاء .

كالدهان : أي كدهن الزيت لذوبانها من حر جهنم . أو محمرة كالدهان : أي مشبهة الجلد الأحمر . فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان : إذ لا حاجة إلى ذلك ، فهو معلوم لله ، مكتوب عند ملائكته .

يعرف المجرمون بسيماهم : أي بسواد الوجوه وزرقة العيون ، أو بما يعلوهم من الكآبة والحزن .

فيؤخذ بالنواصي والأقدام : يؤخذ كل واحد بناصيته وقدميه فيطوى ويطرح في النار .

هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون : أي يقال لهم ذلك على سبيل التقريع .

يطوفون بينها وبين حميم آن : أي يترددون بين الاصطلاء بحرها وبين ماء حار « حميم » شديد الحرارة « آن » .

حساب وعذاب :

عرفنا من خلال الآيات السابقة أنه لا مجال للإنس والجن في أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض ، وأن محاولة الإفلات من الحساب مكتوب عليها الفشل والخسران . وهكذا يجد الثقلان نفسيهما أمام القيامة وفي مواجهة الحساب ، وإنه ليوم شديد الهول رعيب عصيب ، فالسماء التي أخبرنا الله بأنه ﴿ **بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا** ﴾ [١] ، وأنها سبع شداد بنيت بأيدٍ وقوة ، تتهاوى في ذلك اليوم وتنشق وتتصدع ﴿ **وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾ [٢] ، ويتغير لونها من زرقتها المعهودة إلى حمرة وردية ، وتتغير بنيتها من أجرام صلبة إلى مادة سائلة تشبه دردي الزيت كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ** ﴾ [٣] ، وأمام هذا الدمار الذي يصيب السماء على ضخامتها وكبرها ، يقال للإنس والجن ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ ؟! .

وفي مثل هذا الموقف لا مجال للتكذيب ، فكل شيء غدا واضحاً ، والإنس والجن في مواجهة الحساب ، ولا حاجة لسؤالهم عن ذنوبهم ، فلسان الحال يغني عن لسان المقال : ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ [٤] .

ثم إن كل شيء معلوم لله مكتوب من قبل الحفظة ، ويكفي أن يأخذه المذنب بشماله ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ** ﴾ [٥] ، فإذن لا حاجة للسؤال كما قال : ﴿ **وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [٦] .

وأما ما ورد في آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ**

---

(١) سورة النازعات : الآيتان ٢٧ – ٢٨ .

(٢) سورة الحاقة : الآية ١٦ .

(٣) سورة المعارج : الآية ٨ .

(٤) سورة الحاقة : الآية ١٨ .

(٥) السورة السابقة : الآيات ٢٥ – ٢٧ .

(٦) سورة القصص : الآية ٧٨ .

﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ (٣) . فليس المراد بالسؤال فيها الاستعلام والاستخبار ، لأن الله يعلم كل شيء ، وإنما المراد به توبيخ وتقريع المكذبين والمجرمين .

وأمّا سؤال المرسلين فكذلك لتقريع مكذبيهم كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ (٤) ، فالسؤال موجه إلى الرسل ، والمقصود به أقوامهم ، أي بماذا أجابكم أقوامكم ؟ وهو أعلم سبحانه بماذا أجاب الأقوام . ولكنه التوبيخ والتقريع . ومثل هذا قوله : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٥) . فالمراد توبيخ وتقريع قاتلها .

ولا شك بأن هذا الذي يحدث يوم القيامة من عدم سؤال الجن والإنس عن ذنوبهم فيه من التهديد والوعيد ما فيه ، وفيه من استعجال العقوبة ما فيه ، فالسؤال والجواب مدعاة لتأخير العذاب ، والأمر لا يحتمل التأخير ، فقد كانوا يستعجلونه في الحياة الدنيا ، ومن ثم يتوجه إليهم بالخطاب : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟؟ وهذا من فعاله وشؤونه العجيبة التي لا يمكن التكذيب بها .

وكما أن الله تعالى لا يحتاج إلى سؤال الجن والإنس عن أعمالهم وذنوبهم لمعرفته بها ، فكذلك ملائكته الذين كتبوا أعمال العباد وأحصوا ذنوبهم ، لا يحتاجون أن يقرءوا ما كتبوا ، فالأمر أيسر من ذلك بكثير إذ لا وقت للقراءة والذنوب مكتوبة على وجوه المجرمين علامات واضحة لا تخطىء ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٦ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان ٩٢ – ٩٣ .

(٣) سورة الصافات : الآية ٢٤ .

(٤) سورة المائدة : الآية ١٠٩ .

(٥) سورة التكوير : الآيتان٨ – ٩ .

(٦) سورة آل عمران : الآية ١٠٦ .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ (١) .

وهناك آيات كثيرة تبين معنى قوله تعالى :﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي بعلامات خاصة يعرفون بها ، منها قوله تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (٢) ، ومعنى ترهقها قترة : أي يعلوها ويغشاها سواد كالدخان ، ومنها قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣) ، ومن العلامات التي يعرفون بها أيضاً زرقة العيون كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (٤) . وهكذا يعرفون بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ، وبما يغشاهم من الكآبة ، وبما يخيم عليهم من الذل ، وبما يحيط بهم من التعب والنصب ، وبما يتبدى منهم من الخوف والحزن .

وما أن تراهم الزبانية حتى تعرفهم بسيماهم ، ومن ثم يكون الأخذ بالنواصي والأقدام ، حيث روي في معناها أنهم يجمعون ناصيته مع قدميه ثم يلقونه في النّار بقوة وعنف ، وقيل : إن هذا الجمع بين الناصية والقَدَم يكون في سلسلة من وراء الظهر ، وقد وردت آيات أخرى تشير إلى تفصيلات أخرى في هذا الأخذ وما يرافقه من الهوان كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٥) ، وكقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (٦) ، وكقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (٧) ، إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٠ .

(٢) سورة عبس : الآيات ٤٠ – ٤٢ .

(٣) سورة يونس : الآية ٢٧ .

(٤) سورة طه : الآية ١٠٢ .

(٥) سورة القمر : الآية ٤٨ .

(٦) سورة الحاقة : الآية ٣٢ .

(٧) سورة غافر : الآيتان ٧٠ – ٧٢ .

ثم يبين لهم أن هذا العذاب الذي وصلوا إليه ، واصطلوا بناره ، هو جهنم التي كانوا يكذبون بها ، ولا يصدقون أنهم صائرون إليها ، ومن ثمَّ يضيف إلى عذابهم المادي عذابهم النفسي بمثل هذه الأقوال التي تقال لهم وهم يصطلون بنارها : ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾ [١] ، وقوله : ﴿ **انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ** ... ﴾ [٢] .

وهكذا يتردد المجرمون ويتنقلون بين نوعين من العذاب : حر جهنم من جانب ، وحميم آن شديد الحرارة بالغ النهاية في ذلك من جانب آخر ، وهذا النوع الثاني ألوان متعددة ، فتارة يكون شراباً لهم كما قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ **هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ** ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿ **فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ** ﴾ [٥] ، وقوله : ﴿ **وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ** ﴾ [٦] ، وقوله : ﴿ **لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا** ﴾ [٧] . وتارة يكون ماءً يصب من فوق رؤوسهم كما قال تعالى : ﴿ **قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ** ﴾ [٨] ، وقوله : ﴿ **ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ** ﴾ [٩] ، وتارة يسحبون فيه كما قال : ﴿ **إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ** ﴾ [١٠] .

وهكذا يبين الله للإنس والجن طرفاً من فعاله العجيبة وآلائه العظيمة ، التي لا يمكن

(١) سورة السجدة : الآية ٢٠ .

(٢) سورة المرسلات : الآيات ٢٩ – ٣١ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٧٠ .

(٤) سورة ص : الآية ٥٧ .

(٥) سورة الواقعة : الآيتان ٥٤ – ٥٥ .

(٦) سورة محمد : الآية ١٥ .

(٧) سورة النبأ : الآيتان ٢٤ – ٢٥ .

(٨) سورة الحجر : الآية ١٩ .

(٩) سورة الدخان : الآية ٤٨ .

(١٠) سورة غافر : الآيتان ٧١ – ٧٢ .

لهم أن يكذبوا بها ، ومن ثم يلتفت إليهم قائلاً : ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ . ولا بد أن يكون الجواب : « ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب » .

المقطع السابع

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

معاني الكلمات :

ولمن خاف مقام ربه جنتان : أي ولمن خاف قيام ربه ومراقبته له في الدنيا ، أو قيامه بين يديه للحساب في الآخرة – بستانان يتنقل بينهما .

ذواتا أفنان : أي ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة .

فيهما عينان تجريان : أي تسرحان لسقي تلك الأشجار .

فيهما من كل فاكهة زوجان : أي نوعان وضربان .

متكئين على فرش بطائنها من استبرق : أي مضطجعين على فرش بطائنها من غليظ الديباج . فكيف بظواهر هذه الفرش ؟! .

وجنى الجنتين دان : أي قريب التناول سهل القطاف يجتنيه كيف شاء قائماً أو قاعداً أو راقداً .

فيهن قاصرات الطرف : أي حور قصرن طرفهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم .

لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان : أي عذارى لم يمسهن أحد قبل أزواجهن .

كأنهن الياقوت والمرجان : أي يشبهن الياقوت في صفاء ألوانهن ، والمرجان في حمرتها .

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان : أي ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن الله إليه في الآخرة .

جنتان للمقربين :

تحدثت الآيات السابقة عن بعض ألوان العذاب التي أعدها الله للمكذبين يوم القيامة ، وتتحدث الآيات التي ذكرناها قبل قليل عن بعض ما أعده الله للمؤمنين الصادقين من ألوان النعيم في الآخرة ، وذلك لتتم الموازنة والمقارنة بين المصيرين ، فيكون ذلك ترغيباً في طريق الإيمان من جانب وترهيباً من طريق الكفر من الجانب الآخر .

وقد أخبرت الآيات أن الله أعد جنتين لمن خاف مقام ربه ، وفي الذي يخاف مقام ربه قولان :

الأول : أنه الذي يخاف قيامه بين يدي ربه يوم القيامة للحساب ، كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (١) . ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ (٢) . ومثله قوله تعالى ﴿ **ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ (٣) .

والمراد أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه للحساب فنهى نفسه عن هواها .

الثاني : أنه الذي يخاف قيام الله عليه في الدنيا ومراقبته لأعماله وإحصاءها عليه ، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ (٤) . وقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ **وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** ﴾ (٦) . وأما قوله : ﴿ **جَنَّتَانِ** ﴾ : قيل : لما كان الخطاب للإنس والجن ، فكأنه قصد جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجني . وقيل : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي لأن التكليف دائر عليهما . وقيل : إحداهما يثاب بها ،

---

(١) سورة المطففين : الآية ٦ .

(٢) سورة النازعات : الآيتان ٤٠ – ٤١ .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ١٤ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٥) سورة الرعد : الآية ٣٣ .

(٦) سورة يونس : الآية ٦١ .

والأخرى تضم إليها على وجه التفضل، كقوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (١) .

ثم بدأ بوصف هاتين الجنتين، فأخبرنا أنهما ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ أي واسعتا الفناء، وصاحبتا أشجار كثيرة، وأغصان نضرة حسنة، وتحمل هذه الأغصان من كل ثمرة نضيجة فائقة ما يجمع أنواعاً من الملاذ، وصنوفاً من الطعوم . ولما كانت الأشجار والثمار بحاجة إلى الماء الذي يسقيهما قال: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أي: تسرحان لسقي تلك الأشجار لتثمر من جميع الألوان . وقيل: إن إحداهما هي التي سماها الله « تسنيم » في قوله تعالى: ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢) . والأخرى هي المسماة بالسلسبيل في قوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾ (٣) .

ثم بين أن في هاتين الجنتين زوجين من كل أنواع الفاكهة والثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

ثم بين حال أهل الجنة وما أعد الله لهم من أسباب الراحة والهناء فأخبرنا عن الفرش الوثيرة التي يضطجعون عليها، وأن بطائن هذه الفرش صنعت من غليظ الديباج والحرير، وإذا كانت البطائن بهذه المثابة، فقد ترك للخيال أن يتصور كيف تكون الظواهر، وذلك من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى .

ومن أسباب الراحة أنهم وهم على هذه الحالة من الاضطجاع والاتكاء على هذه الفرش يتناولون الثمار من أغصانها المتدلية عليهم، فهي قريبة المجتنى، سهلة القطاف .

ولما ذكر الفرش وعظمتها أخبر أن في هذه الفرش « قاصرات الطرف »، وهن اللائي قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهن اكتفاء بهم وشغفاً بحبهم، وأنهن ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴾ فهن عذارى لم يمسسن قبل ذلك، فلم تعرف الإنسية

---

(١) سورة يونس: الآية ٢٦ .

(٢) سورة المطففين: الآيتان ٢٧ – ٢٨ .

(٣) سورة الإنسان: الآيتان ١٧ – ١٨ .

إنسياً قبل زوجها ، ولم تعرف الجنية جنياً قبل زوجها ، أما ألوانهن ففي صفاء الياقوت وحمرة المرجان .

وقد وردت بعض الأحاديث في صفة نساء أهل الجنة ، ولعل من المناسب أن نلم ببعضها هنا : أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن أول زمرة تدخل الجنّة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم ، وما في الجنّة أعزب » (١) . وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولَقَاب قوس أحدكم أو موضع قَدِّه يعني سوطه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطَّلعت امرأة من نساء أهل الجنّة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ، ولطاب ما بينهما ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » (٢) .

ثم يبين الله تعالى أن هذا الجزاء الحسن الذي أعده للمؤمنين إنما كان ثواباً لهم على إحسانهم في الدنيا ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ والمعنى : ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان ، بل لهم الإحسان وزيادة كما قال تعالى : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ (٣) .

المقطع الثامن

﴿ **وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ**

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب أول زمرة تدخل الجنّة على صورة القمر ليلة البدر ٤ /٢١٧٨ – ٢١٧٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣ /١٤١ .

(٣) سورة يونس : الآية ٢٦ .

وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ .

معاني الكلمات :

ومن دونهما جنتان : أي ومن دون الجنتين السابقتين في رتبتهما وفضلهما جنتان أخريان .

مدهامتان : أي شديدتا الخضرة ، والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد ، والدُّهْمَة : سواد الليل .

فيهما عينان نضاختان : أي فوارتان بالماء . والنضخ أشد من النضح .

فيهما فاكهة ونخل ورمان : خصّ النخل والرمان بالذكر مع دخولهما في الفاكهة لبيان مزيتهما وزيادة فضلهما .

فيهن خيرات حسان : أصل « خيْرات » خيِّرات – بالتشديد فخفف – والمعنى : خيِّرات الأخلاق ، حسان الوجوه .

حور مقصورات : الحور جمع « حوراء » وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها . ومقصورات : أي ملازمات خدورهن .

في الخيام : قيل : هي الحجال . وقيل : البيوت . وفي الآثار أن الخيمة : درة مجوفة .

متكئين على رفرف خضر : أي على الوسائد ، أو الفرش المرتفعة ، أو الرقيق من ثياب الديباج ذات اللون السندسي الأخضر .

وعبقري حسان : العبقري الطنافس ، وقيل : الزرابي ، وقيل : الديباج الغليظ . وهو منسوب إلى عبقر ، وتزعم العرب أنه بلد الجن ، فينسبون إليه كل شيء جيد .

جنتان لأصحاب اليمين :

عرفنا من خلال آيات المقطع السابق صفة الجنتين اللتين أعدهما الله سبحانه لمن خاف مقام ربه . وفي هذا المقطع الأخير من السورة بيان لصفة جنتين دون الجنتين السابقتين في المنزلة والفضل . ويرى المفسرون أن الجنتين المذكورتين في هذا المقطع مما يخص أصحاب اليمين ، بينما الجنتان المذكورتان في المقطع السابق مما يخص المقربين من السابقين .

ومعلوم أن مرتبة أصحاب اليمين دون مرتبة المقربين ، فكان لا بد من تفاوت الثواب والأجر بينهما ، وذلك واضح من المقارنة بين صفة جنتي أصحاب اليمين وبين صفة جنتي المقربين .

فقد وصفت الجنتان هنا بأنهما « مدهامتان » ، أي شديدتا الخضرة يضرب لونهما إلى السواد ، بينما وصفتا هناك بأنهما « ذواتا أفنان » ، و « الأفنان » تفيد فيما تفيد من المعاني تعدد الألوان ، وهي ميزة بلا شك . ووصفت عينا الماء هنا بأنهما نضاختان أي فوارتان . بينما وصفتا هناك بأنهما تجريان ، ولا شك بأن النضخ دون الجريان . وفوق النضح .

ووصفت الجنتان هنا بأن ﴿ **فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ** ﴾ وهي دون الوصف هناك ﴿ **فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ** ﴾ حيث يشمل الوصف كل أنواع الفاكهة على سبيل الاستغراق ، ويزيد في الكمية ضعفاً « زوجان » . ووصفت النساء هنا بأنهن ﴿ **خَيْرَاتٌ حِسَانٌ** ﴾ على سبيل الإجمال ، بينما وصفتا هناك ﴿ **كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ** ﴾ وفي زيادة التفصيل من التفضيل ما فيه . كما وصفت هنا بأنهن ﴿ **مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ** ﴾ ووصفت هناك بأنهن ﴿ **قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ** ﴾ والمقصورات دون القاصرات ولا شك . واستوت صفة النساء هنا وصفة النساء هناك بأنهن لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، نظراً لعدم إمكان التفاضل في ذلك .

ووصفت المتكآت هنا بأنها ﴿ **رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ** ﴾ ، أي وسائد وفرش مرتفعة من رقيق ثياب الديباج ذات اللون السندسي الأخضر ، وطنافس وزرابي من الديباج الغليظ المنسوب إلى عبقر . بينما وصفت بطائن المتكآت هناك بأنها من غليظ الديباج ، فإذا كانت الظواهر هنا كالبطائن هناك ، فلا شك أن الظواهر هناك فوق الوصف ، ومن ثم أغفلها ليذهب الخيال في صفتها كل مذهب .

ويرى المفسر العلامة عبد الحميد الفراهي الهندي أن مثل الجنتين الأوليين قريب في وصفه من جنات فارس ، وأن مثل الجنتين الآخريين قريب في وصفه من جنات الشام والعرب ، ذلك أنه جاء في الأوليين : « عين جارية ، وجنىً دان ، ونساء حمر خفرات ، مع أنهن نساء المدن ، وفرش من استبرق » . وفي الأُخْرَيَيْن : « عين متدفقة بين الجبال ، ونخل ورمان ، ونساء سود العيون ، ساكنات الخيام ، ورفرف خضر وعبقري » . ثم يقول الفراهي : ألا ترى

أن الحمرة والاستبرق للفرس ، وليس لهم ما للعرب من السرير والنخل والرمان والخيام والعبقري ، وحَوَر العيون ، وحب الخضرة » . ويرى الفراهي أنه لم يذكر قاصرات الطرف في الأخريين لأنه لم يبق حاجة لذلك بعد أن أخبر أنهن مقصورات في الخيام ، وإلا فالحياء أحب شيء في نساء العرب » (١) .

والملاحظ أنه خص الجنتين الأخريين بذكر الخيام ، كما خص الأوليين بقوله : ﴿ **وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ** ﴾ فاستغنى بظلال الثمار والأشجار عن ظل الخيام ، وفي ظلال الثمار والأشجار الدانية من المتاع ما ليس مثله في ظل الخيام ، وكما أشار إلى ذلك في قوله تعالى في سورة الإنسان : ﴿ **وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً** ﴾ (٢) علماً أنه قد ورد في الآثار أن الخيام هنا هي من اللؤلؤ المجوف ، كما أخرج البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون » (٣) .

وختم وصف الجنتين الأوليين بقوله : ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ فكان أحسن الجزاء في الثواب متوافقاً مع درجة الإحسان التي هي أفضل المراتب في الأعمال كما يشير إلى ذلك حديث جبريل ، قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) .

وختم وصف الجنتين الأخريين بقوله : ﴿ **تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ ، وهذا يعني أنه أهل أن يُجَل فلا يعصى ، وأن يكرم فَيُعْبَد ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، ولا غرابة في ذلك فهو « ذو الجلال والإكرام » أي : ذو العظمة والكبرياء . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) مذكرات الفراهي – وهي ملاحظات بين يدي التفسير الذي كان ينوي كتابته – وهي ما تزال مخطوطة – .
(٢) سورة الإنسان : الآية ١٤ .
(٣) صحيح البخاري : كتاب التفسير ، باب حور مقصورات في الخيام ٨/ ٨٠٤ .
(٤) صحيح مسلم : كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان .

المصادر والمراجع

١ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ، عالم الكتب ببيروت .

٢ – الاعتقادات للراغب الأصفهاني ، تحقيق شمران العزلي ، مؤسسة أشرف ببيروت ، الطبعة الأولى .

٣ – بدائع التفسير لابن القيم ، جمعه يسري السيد محمد ، دار ابن الجوزي بالدمام ، الطبعة الأولى .

٤ – تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) دار الفكر ببيروت ١٩٨٨ م .

٥ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، طبعتا دار الفكر ، ودار الشعب .

٦ – تفصيل النشأتين للراغب الأصفهاني ، تحقيق عبد المجيد النجار .

٧ – دائرة معارف الشعب المصرية ، العدد (٧٣) .

٨ – دلائل النظام للفراهي ، دائرة الحميدية لمدرسة الإصلاح فراي مير أعظم كره بالهند .

٩ – الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ، تحقيق أبو اليزيد العجمي .

١٠ – سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ببيروت .

١١ – سنن الدارمي ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الثانية .

١٢ – صحيح البخاري (مع فتح الباري) ، بعناية عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ببيروت .

١٣ – صحيح مسلم ، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ببيروت ١٤١٣ هـ .

١٤ – في ظلال القرآن لسيد قطب ، طبعة دار الشروق .

١٥ – الكشاف للزمخشري ، بعناية مصطفى حسين أحمد ، دار الكتاب العربي .

١٦ – المحرر الوجيز لابن عطية ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ، ١٩٧٥ م .

١٧ – المذكرات للفراهي ، نسخة خطية .

١٨ – مسند الإمام أحمد ، ضمن موسوعة السنة ، دار الدعوة بإسطنبول ، الطبعة الثانية .

١٩ – مفتاح دار السعادة لابن القيم ، مؤسسة الأندلس بمصر ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ .

٢٠ – مفردات القرآن للفراهي ، مطبعة الإصلاح بالهند ١٣٥٨ هـ .

٢١ – مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني ، دار الدعوة بالكويت ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ م .

٢٢ – منطقة المصب والحواجز بين البحار في القرآن الكريم لعبد المجيد الزنداني ، هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .